"الأخ" و"الرعية" والمواطن

ديناميّة الوضع السياسي للفرد في البلاد التونسية

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة

"الأخ" و"الرعية" والمواطن

ديناميّة الوضع السياسي للفرد في البلاد التونسية

عبد الحميد هَنِيَّة

ترجمة

مصطفى التليلي

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

هنية، عبد الحميد

"الأخ" و"الرعية" والمواطن: دينامية الوضع السياسي للفرد في البلاد التونسية/ عبد الحميد هنية؛ ترجمة مصطفى التليلي.

280 صفحة؛ 21 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 257-272) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-731-3

1. تونس - أحوال سياسية. 2. المواطنة - تونس. 3. الدولة - تونس. 4. النخب السياسية - تونس. 5. الثورة التونسية (14 جانفي 2011) 6. تونس - أحوال اجتماعية. أ. التليلي، مصطفى (مترجم). ب. العنوان. ج. السلسلة.

320.9611

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من المؤلف لكتاب

Le "frère", le "sujet" et le citoyen:
Dynamique du statut politique de l'Individu en Tunisie

par Abdelhamid Hénia

Copyright © 2015, Les éditions *l'Or du Temps* / "Awtâr éditions", Tunis

عن دار النشر

Les éditions *l'Or du Temps*.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، آذار/ مارس 2026

المحتويات

شكر وتقدير 9

توطئة 11

مقدمة عامة 17

القسم الأول
انبثاق وضع الفرد وانتكاساته

مقدمة 39

الفصل الأول: منطق الدولة ومنطق الجماعة القَبَلية 41

أولًا: منطق الدولة 46

1 – عالم الحضريين 46

2 – تكريس منطق الدولة في البلاد التونسية 53

أ– المرحلة الأولى: توازن هش 53

ب– المرحلة الثانية: إنكار الجماعة في سبيل
فرض نظام تحييز موحَّد 57

ثانيًا: منطق الجماعة القَبَلية 63

1 – عالم الأرياف 63

2 – الفرد على محك منطق الجماعة 70

خلاصة 81

الفصل الثاني: عندما يكون وضع "الرعية" امتيازًا للحضر 83
أولًا: الحقل اللغوي الجِبائي ووضع الفرد. 84
ثانيًا: وضع الرعية 85
1- في شأن أصول عبارة الرعية 85
2- ماذا تعني عبارة الرعية في السجل اللغوي
الجِبائي التونسي؟ 90
ثالثًا: مجال وضع الرعية 92
خلاصة 94

الفصل الثالث: عندما كان وضع الفرد
في الوسط القَبَلي هو وضع "الأخ" 97
أولًا: تَصوُّر الفرد في الوسط القَبَلي 98
1- تعداد السكان والممتلكات: عمل سياسي للغاية 99
2- تعداد عام 1726-1727 ورهاناته 101
3- احتساب "إخوة الشيخ" 102
4- هل يتعلق الأمر بجماعات قَبَلية "بدائية"؟ 105
ثانيًا: تعداد عام 1726-1727 والقطيعة الإبستيمولوجية
في تصور المجتمع القَبَلي 114
خلاصة 119

الفصل الرابع: توحيد وضع الفرد في الوسط القَبَلي 121
أولًا: إخضاع الأفراد في إطار القبائل ومراحله 123

ثانيًا: وضع "الرعية": موضوع تفاوض؟ 134
1- في عالم المدن 135
2- في عالم القبائل 136
خلاصة 138

الفصل الخامس: إصلاحات القرن التاسع عشر
والتفريق بين الدوائر 141
أولًا: القطيعة الأولى: دستور عام 1861
والتفريق بين الدوائر السياسية 144
ثانيًا: القطيعة الثانية: إعادة ابتكار بناء الدولة 147
ثالثًا: القطيعة الثالثة الإبستيمولوجية:
بروز تصنيف "العمومي" 150
خلاصة 158
خاتمة القسم الأول 163

القسم الثاني
الظهور الصعب لوضع الفرد "المواطن"

مقدمة 167

الفصل السادس: السياق الاستعماري: الفرد بين "الأهلي"
المستعمَر و"المواطن" الوطني 169
أولًا: الفرد في المنطق الاستعماري: ولادة "الأهلي" 169
ثانيًا: الفرد في المنطق الوطني: "المواطن" قبل العبارة 175
خلاصة 180

الفصل السابع: البروز الصعب للفرد المواطن
خلال حقبة ما بعد الاستقلال 183
أولًا: ظروف بروز "الطبقات الوسطى" 188
ثانيًا: الفرد وولاءاته 192
ثالثًا: عندما تحتل النخب واجهة الساحة السياسية 195
1- المواصلة التاريخية لسيطرة الفئات النخبوية 197
2- مواطنة تحت رعاية النخب ما بعد الاستعمارية 203
3- مواطنة منقوصة أو مواطنة مسلوبة 211
رابعًا: عندما تستعيد الفئات المهمَّشة
السيادة وتَشرَع في النضال 215
خلاصة 218
الفصل الثامن: وضع الفرد المرأة 223
أولًا: وضع الفرد المرأة في الماضي 226
ثانيًا: المعركة من أجل تحرير المرأة وانتكاساتها 233
خلاصة 242
خاتمة 247
المراجع 257
فهرس عام 273

شكر وتقدير

حظي هذا الكتاب، منذ تحريره حتى نشره، بدعم من أشخاص ومؤسسات، نحرص على توجيه الشكر إليهم. وأبدأ بشكر مؤسسة هانس سايدل المغرب (Hanns Seidel Maghreb) التي قدّمت دعمًا ماديًّا لنشره. كما أعبّر عن اعترافي بفضل [المرحوم] عبد الرحمن أيّوب الذي التزم، من دون تردد، بنشر المؤلَّف وتوزيعه ضمن منشورات "تبر الزمان".

وقد قَبِل بعض الزملاء والأصدقاء قراءة المخطوطة، وأفادوني بملاحظاتهم، واقترحوا عليّ بكل تبصُّر عددًا من التعديلات. وأخص بالذكر منذر كيلاني (جامعة لوزان) الذي وفّر لي دعمًا مهمًّا بقبوله قراءة بعض فصول النص، بكل دقة وسخاء، وتقديم بعض الملاحظات النقدية والتصويبات. وقد ساعدتني قراءته على إعادة توجيه عدد من أفكاري، وعلى تجويد عملي. وأود استغلال هذه الفرصة للتعبير عن امتناني، وأنا مَدين له فكريًّا. وهنا أشكره كثيرًا، مع التأكيد بأنني أتحمّل وحدي مسؤولية الهفوات والأخطاء التي قد لا تزال موجودة في هذا الكتاب.

وأنا مَدين بشدة أيضًا لفريق مخبر البحث "دراسات مغاربية" (جامعة تونس) الذي انتميتُ إليه منذ تأسيسه، إذ ساهمَت الإضافات الفردية لأعضائه، والنقاشات التي نُظِّمت على مدى خمس عشرة سنة من هذا الفريق، في صقل عدد من أفكاري المعروضة في هذا العمل.

وأود أن أحيّي بتحية خاصة روح المرحوم عبد القادر الزّغل، الذي ساعد على توجيه بعض الأفكار الواردة في هذا الكتاب، وعلى تدقيقها بفضل أفكاره الصائبة المتعددة خلال النقاشات الثرية في إطار مخبر "دراسات مغاربية". فله مني التقدير العميق والامتنان.

توطئة

هذا الكتاب ليس موجَّهًا إلى الباحثين فحسب، بل هو موجَّه، بالقدر نفسه، إلى الباحثين والفاعلين الاجتماعيين. ومن اليسير أن نعرف أن طموح هذا المشروع يحمل الأثر المميَّز للتفكير المقترن بالعمل المواطَني. ويعيد هذا الكتاب تناولَ مجموعة من الدراسات التي تولّينا نشرَها سابقًا، في مؤلفات جماعية، وفي لحظات مختلفة من تطور تفكيرنا، لكنها اشتركت كلها في نقطة واحدة هي تحليل الجوانب المرتبطة بوضع الفرد[1]. وقد أعدنا طرحها في أفق جديد؛ فهذا الكتاب ليس إعادة إنتاج تامة ومكرَّرة

(1) هذا الكتاب ثمرةُ خمس عشرة سنة من التفكر في النصوص. وتعود أفكار الموضوع الأولى إلى أعوام 1996–1998، عندما بدأتُ التفكير حقيقةً في وضع الفرد بالبلاد التونسية متوخيًا المشاركة في برنامج بحثي لـ "المؤسسة الأوروبية للعلوم" (Fondation Européenne de la Science) في شأن "الفرد والمجتمع في العالم المتوسطي الإسلامي"، الذي أداره روبير إيلبير (Robert Ilbert) في "معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي" (IRMAM) في مدينة إكس آن بروفانس. وهذه النصوص هي التالية:

Abdelhamid Henia, "La sujétion de l'individu dans le milieu tribal en Tunisie à la veille du protectorat français," in: Kirsi Virtanem (ed.), *Individual, ideologies and society: Tracing the Mosaic of Mediterranean History*, Tampere Peace Research Institue (Tapri), Research Report, no. 89 (2000), pp. 179-194; Abdelhamid Henia, "L'individu entre la logique étatique et la logique communautaire: cas de la Tunisie à l'époque moderne (XVII^{e}-XIX^{e} siècles)," dans: Mohamed-Hédi Chérif & Abdelhamid Henia (coords.), *Individu et pouvoir dans les pays islamo-méditerranéens* (Publications de la Fondation Européennes des Sciences, Maisonneuve & Larose, 2009), pp. 67-83; Abdelhamid Hénia, "Dynamique du statut de l'individu en Tunisie (XVIII^{e}-XX^{e}s.)," dans: Abdelhamid Henia (coord.), *Itinéraire d'un historien et d'une historiographie. Mélanges de Diraset offerts au professeur émérite Mohamed-Hédi Chérif* (Tunis: Publications de Diraset du Centre des publications universitaires (CPU), 2008), pp. 157-176.

لهذه الدراسات، بل أعيد صوغها بالكامل، وتَبيَّن أن إعادة صهرها مُثرِية، فأفكاري ازدادت دقة، واستنتاجاتي باتت أكثر تحفظًا.

تعود فكرة أن أجعل منها كتابًا، وهي الفكرة التي نمت شيئًا فشيئًا، إلى غداة الثورة التونسية في 17 كانون الأول/ ديسمبر 2010 – 14 كانون الثاني/ يناير 2011. وقد فتحت قضايا حقوق الإنسان والمواطَنة والحريات الفردية، مباشرةً، النقاش في شأن مسألة تفريد (individuation) العلاقات الاجتماعية من ناحية، ومسألة ظهور أو عدم ظهور علاقات مدنية تربط الأفراد بعضهم ببعض وبالمجموعة (collectivité)، علاوة على علاقات التضامن البدائية من ناحية أخرى. ومن هنا نشأ اهتمام هذا البحث بشأن مسار التفريد في البلاد التونسية مرفَقًا بعمق تاريخي كافٍ، حتى نضمن له عمقًا اجتماعيًّا واضحًا.

هناك، إذًا، بُعد مُواطَني وسياسي يتصل به هذا الكتاب بالتعرض إلى تشكّل وضع الفرد في البلاد التونسية. فما الوعي الذي يحمله شركاؤنا في الوطن عن ذلك في ممارساتهم؟ وما التصورات في شأن الإنسان والمدينة التي تنجم عن ذلك؟

بيَّن لي هذا البحث المعني بتشكّل وضع الفرد، بقوة ثابتة، كيف يمكن أن يفضي علم التاريخ إلى عمل نضالي مواطَني. وذلك بأن يوجِّه هذا العمل النضالي، ويستفيد بدوره من إثرائه. فأنا لا أخفي نيتي في توفير أدوات لمن يكافحون في سبيل الديمقراطية والحريات الفردية والمواطَنة، وفي جعل عملهم أكثر نجاعة، من خلال الإيضاح الذي توفره التحاليل والبحوث التجريبية الواردة في هذا الكتاب.

يهدف هذا الكتاب إلى أن يكون عملًا نضاليًّا، وفي الوقت نفسه علميًّا وسياسيًّا، بتقديمه توضيحات في شأن مسائل أساسية جدًّا كحركية وضع الفرد، ونضاله في سبيل اكتساب صفة المواطن، وفي شأن التمييز التراتبي

بين الجنسين، ونضال المرأة–الفرد للتحرر من سيطرة الرجل، واكتساب صفة المواطَنة الكاملة.

❋

❋ ❋

جعلت الثورة التونسية في كانون الثاني/ يناير 2011 التفكيرَ في وضع الفرد في البلاد التونسية أمرًا راهنًا (مُلِحًّا ومُستعجَلًا) بما أنه يطرح مسألة المواطَنة. ويحفّز الطلب الاجتماعي القوي النقاش في هذه المسألة. يظلّ تعميق معارفنا بشأن وضع الفرد في دينامياته التاريخية في جوهر النقاش المعني بالديمقراطية. فالكشف وحده قادر على تيسير العثور على الرافعات الملائمة لمواجهة العراقيل. وعلينا أن نقبل، كما ترى فرانسواز هِريتييه، أن "الوعي، إن لم يكن الإدراك، هو دافع قوي جدًّا لتحريك الأمور"[2]. ويتمثل الهدف من تفكيرنا هذا في مساعدة نشطاء الحياة المشتركة في البلاد التونسية على فهم مجتمعهم بتوفير الإيضاح اللازم لتحسين قدرتهم على التفكير، وبالتالي على الفعل. في الواقع، ولد مشروع تأليف هذا الكتاب الذي تبلور فعلًا غداةَ ثورة كانون الثاني/ يناير 2011، كما أشرنا إلى ذلك، من الالتباس الذي يشترك فيه كثير من المراقبين، في التعامل مع انبثاق المواطن باعتباره موضوعًا سياسيًّا بالكامل، بعد تدجين طويل خلال فترة ما بعد الاستقلال كلها. وقد تضاعف هذا الالتباس بفعل عمل مجتمع مدني نشيط جدًّا، خصوصًا من خلال حالة النقد الاجتماعي الذي بلغ أعلى درجات تطوره عندما تَبيَّن بوضوح فشل الترويكا الحاكمة[3]،

(2) Françoise Héritier, *Masculin/féminin. La pensée de la différence* (Paris: Odile Jacob, 1996).

(3) إن الترويكا الحكومية التونسية هي ائتلاف من ثلاثة أحزاب سياسية تألّف غداة الانتخابات التشريعية التي جرت في 23 تشرين الأول/ أكتوبر 2011. هذه الأحزاب هي: [حركة] النهضة، أي الحزب الإسلامي، والمؤتمر من أجل الجمهورية (CPR)، والتكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات.

وخصوصًا بعد عمليتي الاغتيال السياسي اللتين استهدفتا شكري بلعيد (6 شباط/ فبراير 2013) ومحمد البراهمي (25 حزيران/ يونيو 2013)[4]. وهدفنا هو وضع المسارات التاريخية في الأمد الطويل، وفي هذه الحالة مسار تشكّل وضع الفرد، في قلب النقاش العمومي.

غير أنه يجدر التنبيه هنا إلى أن غرض هذا البحث اتخاذ مسافة عن الفاعلين الاجتماعيين كي لا يخاطر بالتماهي بهم. فهو يزمع، فقط، إنتاج المعارف اللازمة لتعزيز القدرة العملية للفاعلين في الحياة الجماعية. وفي أيامنا هذه، يحجم الباحثون في العلوم الاجتماعية، في البلاد التونسية، كما في غيرها من البلدان، غالبًا، عن أداء دور المثقفين العضويين لمصلحة قوى سياسية أو اجتماعية. فهم لا يقبلون أن يُجَنَّدوا بصفتهم تلك في خدمة أنماط غير التي تتأسس عليها مؤهلاتُهم. وهم مستعدون للانخراط في الفضاء العام، لكن بشرط أن يتمكنوا من القيام بذلك بوصفهم منتجين لمعرفة علمية.

*

* *

تنبع التساؤلات التي يتأسس عليها هذا الكتاب من التغيير المفاجئ وشبه التام للأوضاع، ومن استحواذ "النُّخَب" السياسية بمختلف أصنافها[5]

(4) شكري بلعيد: الأمين العام لـ"حزب الوطنيين الديمقراطيين الموحَّد"، وكانت توجهاته يسارية. وقد برز بصورة خاصة بين عامي 2011 و2013 بمعارضته لسياسات حركة النهضة وحلفائها. ومحمد البراهمي: الأمين العام لحزب "التيار الشعبي" ذي التوجهات القومية العربية، وقد انشق عن "حركة الشعب". كان من نواب المجلس التأسيسي المعارضين لخيارات حكومة الترويكا التي جمعت "حركة النهضة" و"حزب المؤتمر من أجل الجمهورية" و"التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات"، وكان عضوًا في الجبهة الشعبية التي كانت تجمع التيارات اليسارية والعروبية. (المترجم)

(5) تُنظر بوادر ذلك الاستحواذ في ورقة حرّرناها إثر أحداث 14 كانون الثاني/ يناير 2011 مباشرةً:

Abdelhamid Hénia (éd.), "Une révolution populaire sans les élites, menacée par les élites," *La lettre de l'IRMC*, no. 5 (2011), p. 4, at: https://tinyurl.com/4e4mkwnj

على مكاسب الثورة الشعبية. وقد عبَّر المدوّنون، وغيرهم من فئة الشباب، عن هذه الوضعية بوسائل عدة (أفلام، ومدوَّنات، وغيرها)[6].

لقد أردنا بهذا العمل أن نفهم بمزيد من التفصيل، وبعيدًا عن تأثيرات موجة الغليان التي شهدتها الأحداث الأخيرة، كيفية تفسير الانتعاش المتجدِّد باستمرار، للجماهير الشعبية. لماذا تأجّج الحَراك الشعبي منذ كانون الثاني/ يناير 2011؟ ولماذا هذا التنافر الدائم بين النخب السياسية والجماهير الشعبية؟

لكن، وقبل التعرض للأجوبة التي نود تقديمها عن هذه الأسئلة، يجب علينا، قبل كل شيء، تقديم خلفية تاريخية للأوضاع الحالية من خلال تبيان تحليل تجزيئي لدينامية وضع الفرد بوصفه فاعلًا سياسيًّا منذ أن بدأ بناء الدولة الحقيقي ينمو في التراب التونسي، وبالتحديد منذ القرن السابع عشر.

وضعتُ هدفًا لي، وأنا بصدد تأليف هذا الكتاب، يتمثل في فهم حالة عدم الارتياح عند كل من يشعرون بأنهم مُقْصَون من الساحة السياسية بحكم هيمنة النخب السياسية. وكان من المفروض أن تؤثّر الهيئات السياسية، التي تمسك بها هذه النخب، في المسارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية تأثيرًا يخلق شروط انتقال سياسي ديمقراطي يُفضي إلى حياة أفضل للأجيال الشابة وللجماهير الشعبية. وبما أنها لم تتمكن من تحقيق

(6) لم يكد يمر عام على الثورة حتى ظهرت خيبة الأمل لدى جزء من الفئة الشابة التي حُرِمت من طموحها إلى الحرية والديمقراطية. ظهر ذلك في فيلم نصر الدين بن معاطي، وعنوانه الأصلي: "أولاد عمّار" أو "الجيل الملعون"، الذي عُرِضَ أول مرة في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 2013. يطرح الفيلم، في خلفيته، إشكاليات التلاعب والتوظيف. ومن خلال هذا العمل، يوثّق نصر الدين بن معاطي جزءًا من تاريخ تونس الحديث، ويعود إلى عالم الناشطين السيبرانيين الذين واجهوا الرقابة وناضلوا ضد الرئيس المخلوع. وكان الفيلم موضوعًا لتقارير ومراجَعات عدة على الإنترنت، يمكنكم أيضًا الاطلاع على الملف الصحفي للفيلم عبر الرابط التالي:
https://tinyurl.com/23c6xve3

هذا الانتقال المنشود بقوة، فإن هذه النخب السياسية لم تستطع أن تمنع (بصفة إرادية أو لاإرادية) انهيار الوضع، وذلك نتيجة تركيز أعمالها على الاحتفاظ بالسلطة أو على استرجاعها.

يكمن طموحنا في تعزيز مقاومة الاستسلام، وفي تحفيز القارئ على تغيير تصرُّفه بمساعدته على النظر إلى مشاكل مجتمعنا بطريقة مختلفة، ومن منظور مختلف، أي بقدر المسارات نفسها التي يمكن التحكم فيها. وقد بدا لنا أن من المفيد، في هذا المضمار، فتح الصندوق الأسود للقرون الثلاثة الأخيرة لمعاينة الطريقة التي بنى بها الأفراد في البلاد التونسية وضعهم السياسي خلال تلك الفترة، والطريقة التي صنعوا بها تاريخهم. وفي الحقيقة، ترتبط قدرتنا على الفعل وعلى التفكير في ذواتنا كفاعلين سياسيين في طور التشكل، بقدرتنا على كشف تاريخية (historicité) تكوُّن وضع الفرد في البلاد التونسية.

هكذا، لا نتبنى في قصدنا وجهة تاريخية واجتماعية، موجَّهة إلى المعرفة (المعرفة العالمة (le savoir savant))، وحسب، بل نتبنّى أيضًا وجهةً تعيد إطلاق العمل السياسي، الذي يُفهَم على أنه تشكيل وتنفيذ لإرادة مشتركة في مواجهة نزعة الهيمنة لدى النخب السياسية. وكما بيَّن ذلك فيليس داسيتو: "لا يمكن فهم العمل البشري إلا باعتباره عمل أفراد"[7]. وإذا لم تكن كل عملية[8] ممكنة بالتأكيد، في كل ظرف، فإن لا شيء ممكن ما دامت خصوصية ميدان العمل نفسه ومشروعيته قد جرى تناسيهما[9].

---

(7) Felice Dassetto, "Individu, pouvoir et mise en ordre du monde (2998)," dans: Chérif & Hénia (coord.), *Individu et pouvoir dans les pays islamo-méditerranéens*, pp. 17-35,

يُنظر: p. 19.

(8) بما يعني خيارًا تقوده قيم في ظروف فريدة، وبالتالي متقلّبة، وتكون نتائجها غير متوقَّعة جزئيًّا.

(9) Hannah Arendt, *Condition de l'homme moderne* (Paris: Calmann-Lévy, 1983).

مقدمة عامة

"حدث تحوّل بسبب ظهور وجه اجتماعي جديد في العالم الثالث، هو الفرد الحديث الذي أخذ المكانة التاريخية بعد عضو القبيلة غير المعروف والفرد في الرعية المستعبدة، لكنه لم يكتسب بعد وضع المواطن"[1].

يحتل الفرد في البلاد التونسية، محورَ تساؤلات المجتمع في هذه الأيام. وقد برزت سلسلة من التساؤلات المُلِحَّة أمام التحولات الاجتماعية التي حدثت بالتحديد غداة ثورة 2011، والتي وفرت للجميع المزيد من الحرية والمزيد من المسؤولية في الوقت نفسه: إلى أي مدى أصبح المجتمع التونسي أكثر فردانية؟ ما الذي يربط بين الأفراد؟ هل هي نهاية الالتزام التضامني أو السياسي؟ يقترح هذا الكتاب عملية مسح هادئة في شأن هذه الأسئلة، مع مقترح يشكِّل الخلفية: بروز الفرد لا يعني "تراجع المجتمع"، بل على العكس من ذلك، هو طريقة جديدة لبناء المجتمع.

---

(1) Mahmoud Hussein, *Versant sud de la liberté. Essai sur l'émergence de l'individu dans le tiers monde* (Paris: La découverte, 1989), p. 174 (4e de la couverture),

اسم محمود حسين ليس سوى اسمٍ مستعارٍ لكاتبين مصريين هما: بهجت النادي وعادل رفعت.

تعود البحوث الريادية لمحمود حسين في شأن الفرد، من خارج السياق الأوروبي/ الغربي، إلى ثمانينيات القرن العشرين[2]. وقد ركّز أبحاثه على "العالم الثالث"، باعتماد تصور يتطلع إلى أن يكون معاصرًا، وليس تاريخيًّا[3].

أما بالنسبة إلينا، فنقوم ببحث ملموس أكثر ومدرج في سياق زمني ومكاني. وهو يتعلق بمسار التفريد الذي شهدته البلاد التونسية من القرن السابع عشر إلى بداية القرن الحادي والعشرين. وهذه الدراسة الاستقصائية تاريخية صرف. ولا نعتقد بأن بحثنا يناقض بحث محمود حسين بشكل عام، لكنه يُظهِر فروقه أكثر. لذا يجب ربطه بمعطيات من التاريخ، وتحديد ملامح المجتمع التونسي، وتدقيق الفاعلين الاجتماعيين الذين نشير إليهم، وأخيرًا تحديد ملامح الفترات المعنية بالدراسة.

*

* *

لماذا نضع كتابًا عن وضع الفرد في البلاد التونسية؟ وبمَ يتعلق الأمر بالتحديد؟ ينبغي فهم مسار نشأة وضع الفرد، من الناحيتين الأنثروبولوجية والسياسية، باعتباره علاقة سياسية[4]. ويتمثل الأمر في تعقب التصورات

---

(2) Hussein, *Versant sud de la liberté*; "Remarques sur l'émergence de l'individu dans les sociétés du Sud," dans: "L'individu au Maghreb," Actes du colloque international de Beit al-Hikma, Carthage 31 Octobre - 2 Novembre 1991, Mohamed Arkoun (intro) (Tunis: Éditions T.S., 1993), pp. 15-23.

(3) كتب محمود حسين: "هذه المقالة ليست كتاب تاريخ. إنها العرض التركيبي قدر المستطاع لإشكالية نسعى من خلالها للإلمام بحركة الوعي، أو الهوية الفردية التي بصدد التفتّح، إنها صدى المراحل التاريخية المتعاقبة في هذا الوعي التي تَطابَق معها". ينظر:
Hussein, *Versant sud de la liberté*, pp. 13-15.

(4) يذكر فيليس داسيتو في مقالة له أن "من الأفضل للتحليل المتعلق بالفرد المعاصر أن يتحول إلى تحليل العلاقات بين الفرد والجماعة"، ويضيف القول كذلك: "إن الوجود الفردي غير ممكن إلا بوجود الفرد في إطار جماعي إنساني ومادي"، ينظر:
Dassetto, "Individu, pouvoir et mise en ordre," pp. 19, 21.

الخاصة بالمجتمع التونسي، والعناصر التي يتجه ترتيبها نحو بناء أو إعادة بناء الوضع السياسي للفرد، ويكون ذلك في الجذور الأكثر عمقًا. بتعبير آخر، فإن الهدف هو إعادة رسم النمط التاريخي للتفريد وهو بصدد التشكل في المجتمع التونسي، وكشف التحولات الثقافية والاجتماعية المرتبطة بهذه الظاهرة. وقد كان على كل مقطع من هذه التحولات أن يضيف تعديلاته الخاصة لمسار النشأة هذا. يتمثل مشروعنا، أساسًا، في تقديم بحثٍ تجريبيٍّ ودقيقٍ يعتمد على المعطيات الأرشيفية والببليوغرافية. فلا يقدِّم البحث في العلوم الاجتماعية الكثير من المعارف الأساسية عن المجتمع إلا إذا استقرأ وقائع اجتماعية ملموسة. وغالبًا ما ينجح التحليل التجريبي للحياة الاجتماعية في كشف الخصائص الأساسية لاشتغال جملة الواقع الاجتماعي.

يعطي تفتت النسيج الاجتماعي، اليوم، مسألة الفرد ملاءمةً كموضوع وكفاعل، وكذلك كعلاقة سياسية. هذا الجانب الأخير ليس في المتناول، فهو باستمرار في سيرورة إعادة البناء وفقًا للعلاقات التي تقام بين القوى السياسية-الاجتماعية الموجودة. ومقاربة المجتمع عبر مفهوم الفرد من شأنها أن تُجدّدَ تحليل المجتمع التونسي وتُعَمِّقَه، فهي ذات قيمة استكشافية مؤكَّدة.

إن الفرد هو مفهوم مُعرَّف أولًا في إطار "الحداثة" الغربية مثله مثل "الدولة"، و"الأمة"، و"الوطن"، و"المواطَنة"، و"العلمانية" وغيرها. ويسمح هذا المفهوم، كأي برديم، بطرح تساؤلات محدَّدة. يُفضي بنا تحليل الفرد كعلاقة سياسية إلى متابعة الدينامية الاجتماعية في كليّتها، من الداخل ومن خلال الوحدات المؤسِّسَة للمجتمع. وباعتبارها علاقة سياسية مركَّبة، لا يأخذ وضع الفرد المعنى والمحتوى نفسهما من تشكيلة اجتماعية-سياسية إلى أخرى، ومن فترة تاريخية إلى أخرى. يوفر تاريخ البلاد التونسية بين القرن السابع عشر والقرن الحادي والعشرين تشكيلات

عدة لوضع الفرد. وهذا ما يسمح لنا بفهم اتجاه التطور الذي عرفته هذه البلاد طوال تلك الفترة.

تُعَدّ الدراسة الاجتماعية-التاريخية للتفريد في البلاد التونسية موضوعًا جديدًا نسبيًّا. وهي علاوة على ذلك موضوع راهن. تندرج دراستنا في إطار مجموعة واسعة من البحوث المتعلقة بالفرد ومسار التفريد. ومنذ 30 سنة، أعطى توجّه جديد في بحوث العلوم الاجتماعية الفردَ مكانةً مركزية في فهم الحياة الاجتماعية[5]، بوصفه فاعلًا في علاقاته مع الآخرين، وموضوعًا في علاقاته مع ذاته[6].

---

(5) طبعت بحوث عدة هذا الولوجَ في عصر الفرد:

Erving Goffman, *La mise en scène de la vie quotidienne*, trad. fr. (Paris: Éditions de Minuit, 1973); (1ère éd. anglaise 1969); Christopher Lasch, *The Culture of Narcissism* (New York: Norton Editions, 1978); Jürgen Habermas, *Théorie de l'agir communicationnel* (Paris: Fayard, 1987 [1981]), vol. 1: "Rationalité de l'agir et rationalisation de la société"; Gilles Lipovetsky, *L'Ère du vide. Essai sur l'individualisme contemporain* (Paris: Gallimard, 1983); Alain Touraine, *Le retour de l'acteur. Essai de sociologie* (Paris: Fayard, 1984); Maurice Blanc (dir.), *Pour une Sociologie de la transaction sociale*, 2 vols. (Paris: L'harmattan, 1994 [1992]); Marcel Gauchet, *La démocratie contre elle-même* (Paris: Gallimard, 2002); Alain Renaut, *L'Ère de l'individu. Contribution à une histoire de la subjectivité* (Paris: Gallimard, 1989); Norbert Elias, *La société des individus* (Paris: Fayard, 1991); Alain Ehrenberg, *L'individu incertain* (Paris: Calmann-Lévy, 1995);

ونذكر هنا أيضًا الطبعة الخاصة من:

Michel Offerlé, "Femme, famille et individu," *Genèse: sciences sociales et histoire*, no. 31 (Juin 1998); Manuel Castells, *La société en réseaux* (Paris: Fayard, 1998); Jean-Claude Kaufmann, *Ego. Pour une sociologie de l'individu* (Paris: Nathan, 2001); Danilo Martucelli, *Grammaire de l'individu* (Paris: Gallimard, 2002); Danilo Martucelli, *Forgé par l'épreuve. L'individu dans la France contemporaine* (Paris: Armand Colin, 2006); Guy Bajoit, "Le renouveau de la sociologie contemporaine," *SociologieS* [En ligne], Théories et recherches, mis en ligne le 27/04/2008, 14 pages, at: https://tinyurl.com/2kzzcsha

(6) ابتداء من ثمانينيات القرن العشرين، شهدنا في المشهد التأريخي (historiographique) عودة "المُفرَد" (singulier) و"الرعية" (sujet) اللذين كانا غائبَين عنه تقليديًّا:

Arlette Farge, *Dire et mal dire, l'opinion publique au XVIIIe siècle* (Paris: Seuil, 1992); Gauchet; Jacques Revel, "L'histoire sociale," dans: Jacques Revel & Nathan Wachtel (éds.), *Une école pour les sciences sociales: de la VIe section à l'Écoles des hautes études en sciences sociales* (Paris: CER-Éditions de l'EHESS, 1996), pp. 47-72,

ينظر: p. 65.

تتمثل المصلحة التي يمكن استخلاصها من دراسة مسار التفريد في البلاد التونسية في القدرة على الإجابة، في نهاية التحليل، عن السؤال المتعلق بمعرفة أيّ حداثة شهدتها هذه البلاد. وينبغي متابعة المسار الذي يَبرُز من خلاله الفرد في داخل جماعته المحلية، وفي مجموعته الأصلية (المسمّاة "الأولية": العائلة) ويصبح، كما هو الشأن في القانون المدني أو الاقتراع العام، وبصرف النظر عن جنسه، موضوعًا للنشاط السياسي.

نأمل من خلال هذا البحث في شأن مسار التفريد في البلاد التونسية، أن نفهم الحقائق الواقعة اليوم فهمًا أفضل، وأن نُعِدّ للمستقبل في الوقت نفسه. بعبارة أخرى: تحسين معرفتنا بالماضي كي نُحسِن التطلع إلى المستقبل.

لا شك في أن مقاربة المجتمع من خلال إشكالية الفرد ليست غريبة عن توسُّع العولمة. فمثلما أفضت مركزة سلطة الدولة، مع المرور من الدولة الترابية (État territorial) إلى الدولة–الأمة (État-nation)، إلى انتشار مفهوم حقوق الإنسان (الذي ولد من القرن الليبرالي للأنوار، وبالتحديد من الثورة الفرنسية عام 1789)، يَسَّر توسّع العولمة، خصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية، انتشار حقوق الشعوب. وساهمت حقوق الشعوب، بدورها، بمفعول رجعي، في تقدم حقوق الإنسان، وأدت، في الوقت نفسه، إلى حصول تلك العودة الجامحة للبحوث نحو الفاعل (الفردي أو الجماعي)، والعمل المدرَج في إطاره، ونظام عمل الفاعلين الفرديين واستراتيجياتهم كأفراد. وحاليًّا، لا يمكن تفسير بحثٍ في شأن الفرد إلا بوضعه في إطار هذا التوجه الجديد المهيمِن.

هل يختار الباحث مواضيع بحوثه فعلًا؟ في الحقيقة، لا تُعَدّ إشكالياته البحثية غريبة عن انشغالات العالم الذي يعيش فيه؛ فهناك دومًا تأثير لظاهرة الطراز السائد ليس غريبًا بتاتًا عن مشاغل الوجود الآنية. وتنبني